ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى.

الرضا

س: اذكر بعض الآثار في فضل الرضا؟

ج: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود: «**إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك، ولا أحط لوزرك، من الرضى بقضائي**».

ونظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عدي بن حاتم كئيبًا، فقال: «**يا عدي: ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟ فقال: وما يمنعني فقد قتل ابناي، وفقئت عيني فقال: يا عدي! من رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى وحبط عمله**».

ودخل أبوالدرداء رضي الله عنه على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى، فقال أبوالدرداء: «**أصبت، إن الله ﷻ إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به**». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إن الله تعالى بقسطه وعمله جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**». وقال علقمة في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١] قال: «**هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى**».

وقال أبومعاوية الأسود في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. قال: «**الرضى والقناعة**».

وفي الأخبار السالفة: أن نبيًا من الأنبياء شكا إلى ربه ﷻ الجوع والفقر عشر سنين، فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله إليه: كم تشكو؟ هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب **قبل** أن أخلق السماواتْ والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك **قبل** أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد

أن أبدل ما قدرت لك؟ فيكون ما تحب فوق ما أحب، ويكون ما تريد فوق ما أريد، وعزتي وجلالي، لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة. وفي «زبور داود» عليه السلام: «**هل تدري من أسرع الناس مرًا على الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري**». وقال داود عليه السلام: «**يا رب! أي عبادك أبغض إليك؟ قال: عبد استخارني في أمر، فخرت له، فلم يرض**». وقال عمر بن عبد العزيز: «**ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر. وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله**» رضي الله عنه. وقال الحسن: «**من رضي بما قسم له، وسعه، وبارك الله فيه، ومن لم يرض لم يسعه، ولم يبارك له فيه**». وقال عبد الواحد بن زيد: «**الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين**». وقال بعضهم: لن يرد الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعالى على كل حال، فمن وهب له الرضى، فقد بلغ أفضل الدرجات. وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عبد في عبادته ... لولا شماتة أعداء ذوي إحن

ما سرني أن إبلي في مباركها ... وأن شيئًا قضاه الله لم يكن

س: هل يتصور الرضا فيما يخالف الهوى؟

ج: يتصور الرضا فيما يخالف الهوى. وبيان ذلك إذا جرى على الإنسان الألم، فتارة يحس به ويدرك ألمه، ولكنه يكون راضيًا به، راغبًا في زيادته بعقله، وإن كان كارهًا له بطبعه لما يوصله من الثواب. مثاله أن يلتمس من الحجام الحجامة والفصد، فإنه يدرك ألم ذلك، إلا أنه راض به، وراغب فيه ومتقلد منه الحجام.

وكذلك كل من يسافر في طلب الربح، فإنه يدرك مشقة السفر، لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة، وجعله راضيًا بها، وكل من أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين، فإنه يتوقع الأجر فوق ما فاته، فيرضى بما أصابه، ويشكر الله تعالى عليه، ويجوز أن يغلبه الحب، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه، ويبطل

الإحساس بالألم لفرط الحب، وليس ذلك بعجيب، فإن الرجل المحارب في حال غضبه أو خوفه، تصيبه الجراحات ولا يحس بها، ولا يشعر بها في تلك الحال، وذلك لأن قلبه مستغرق، وإذا كان القلب مستغرقًا بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، وذلك موجود في المشاهدات.

قال الجنيد رحمه الله: «**سألت سريًا: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا**». وقد روينا عن خلق كثير من أهل البلاء، أنهم كانوا يقولون: لوقطعنا إربًا إربًا، ما ازددنا له إلا حبًا.

وقد تقدم أن فرط الحب يزيل إحساس الألم، وهو متصور في حب الخلق، كما حكي بعضهم. قال: كان في جيراننا رجل له جارية يحبها، فاعتلت، فجلس يصلح لها حساء، فبينما هو يحرك القدر، **قالت**: أوه، فدهش وسقطت الملعقة من يده، وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت أصابعه وهولا يعلم. ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام، فإنهن قطعن الأيدي، وما أحسسن بألم، فقد بان بما ذكرنا أن الرضى بما يخالف الهوى ليس مستحيلًا، وإذا كان ذلك ممكنًا في حق الخلق وحظوظهم، كان ممكنًا في حق الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى. وإمكان ذلك في ثلاثة أوجه:

أحدهما: علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره. وقد قال النبي ﷺ: «**ما قضى الله لمؤمن من قضاء إلا كان خيرًا له**».

وعن مكحول قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول: «**إن الرجل يستخير الله فيختار له، فيسخط فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هوقد خير له**».

وعن مسروق قال: «**كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظ للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل خباءهم، والكلب يحرسهم. فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا، فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار، فحزنوا، فقال، الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصيب الكلب، فحزنوا،**

فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصبحوا ذات يوم، فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقوا هم، وإنما أخذ أولئك بما كان عندهم من الصوب والجلبة، ولم يكن عند أولئك شيء يجلب، قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم».

وعن سعيد بن المسيب قال: «قال لقمان لابنه: يا بني: لا ينزلن بك أمر رضيته أو كرهته، إلا جعلت في الضمير أن ذلك خير لك. قال: أما هذه فلا أقدر أن أعطيكها دون أن أعلم ما قلت أنه كما قلت. قال: يا بني: فإن الله قد بعث نبيًا هلم حتى نأتيه، فعنده بيان ما قلت لك. قال: اذهب بنا إليه، فخرج على حمار وابنه على حمار، وتزودوا ما يصلحهما، ثم سارا أيامًا ولياليَ، حتى تلفتهما مفازة، فأخذا أهبتهما ودخلاها، فسارا ما شاء الله أن يسيرا، حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد، فاستبطآ حماريهما، فنزلا يمشيان، فبينما هما كذلك، إذ نظر لقمان أمامه، فإذا هو بسواد ودخان، فقال في نفسه: السواد شجر، والدخان عمران وناس، فبينما هما كذلك يشهدان، إذ وطئ ابن لقمان على عظم على الطريق، فدخل في باطن قدمه حتى ظهر من أعلاها، فخر مغشيًا عليه، فحانت من لقمان التفاتة، فإذا هو بابنه صريع، فوثب إليه فضمه إلى صدره، واستخرج العظم بأسنانه، وشق عمامة كانت عليه فعصب رجله، ثم نظر إلى وجه ابنه فذرفت عيناه، فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها، فنظر إلى أبيه يبكي، فقال: يا ابت: أنت تبكي وأنت تقول: هذا خير لي، فكيف ذلك وأنت تبكي؟!

وقد نفد الطعام والشراب وبقيت أنا وأنت في هذا المكان. قال: أما بكائي يا بني، فوددت أني افتديتك بجمع حظي من الدنيا، ولكني والد ومني رقة الوالد. وأما قولك: كيف يكون هذا خيرا لي؟ فلعل ما صرف عنك أعظم مما ابتليت به، ولعل ما ابتليت به أيسر مما صرف عنك، فبينما هو يحاوره، إذ نظر لقمان أمامه، فلم ير الدخان والسواد، فقال في نفسه: لم أر شيئًا، ثم قال: قد رأيت، ولكن لعله أن يكون قد أحدث ربي بما رأيت شيئًا، فبينما هو يتفكر في ذلك، إذ نظر فإذا هو بشخص قد أقبل على فرس أبلق، عليه ثياب بيض، يمسح الهواء مسحًا. فلم يزل

يرمقه بعينه حتى كان منه قريبًا، فتوارى عنه ثم صاح به فقال: أنت لقمان؟ قال: نعم. قال: ما قال لك ابنك هذا السفيه؟ قال: يا عبد الله من أنت؟، ما أسمع كلامك ولا أرى وجهك؟ قال: أنا جبريل، لا يراني إلا ملك مقرب، أو نبي مرسل، لولا ذلك لرأيتني، فما قال لك ابنك هذا السفيه؟ قال: أما علمت ذلك؟ فقال جبريل: ما لي بشيء من أمركما علم، إلا أن حفظتكما أتوني، وقد أمرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة وما فيها ومن يليها، فأخبروني أنكما تريدان هذه المدينة، فدعوت ربي أن يحبسكما عني بما شاء، فحبسكما عني بما ابتلى به ابنك، ولولا ذلك لخسف بكما مع من خسف به، ثم مسح جبريل عليه السلام بيده على قدم الغلام، فاستوى قائمًا، ومسح يده على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعامًا، ومسح على الذي كان فيه ماء فامتلأ ماء، ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير، فإذا هما في الدار التي خرجا منها بعد أيام الليالي».

الوجه الثاني: الرضا بالألم، لما يتوقع من الثواب المدخر، كما تقدم من الرضى بالقصد والحجامة وشرب الأدوية انتظارًا للشفاء.

الوجه الثالث: الرضا به لا لحظ وراءه، بل لكونه مراد المحبوب، فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضي محبوبه، ولوكان في ذلك هلاك نفسه، كما قال بعضهم: فما لجرح إذا أرضاكم ألم.

وقد سبق أن الحب يستولي بحيث يدهش عن إدراك الألم، ولا ينبغي أن ينكر ذلك من فقده من نفسه، لأنه إنما فقده لفقد سببه، وهوفرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه، ولعمري إن من فقد السمع أنكر لذة الألحان والنغمات، فمن فقد القلب، فلابد أن ينكر هذه اللذات التي لا يمظنة لها سوى القلب.

س: هل الدعاء يناقض الرضا؟

ج: الدعاء لا يناقض الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها، والسعي في إزالتها.

أما الدعاء، فقد تعبدنا الله تعالى به، وقد أثنى تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] ودعاء رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين معلوم. وأما إنكار المعاصي وعدم الرضا بها، فقد تعبدنا الله تعالى به، وذم الراضي به، وكذلك بغض الكفار والفجار، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرة جدًا.

فإن قيل: فقد وردت الأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى، فهو محال، وإن كانت بقضائه، فكراهتها كراهة لقضائه، فكيف الجمع بين هاتين الحالين.

فاعلم أن هذا مما يلتبس على القاصرين على الوقوف على أسرار العلم، حتى التبس على قوم، فرأوا السكوت عن الإنكار مقامًا من مقامات الرضى، وسموه حسن الخلق، وهو جهل محض، بل نقول: الرضى والكراهة يتضادان، إذا توارد على شيء واحد، من جهة واحدة، على وجه واحد. فأما إذا رضيت بشيء من وجه، وكرهته من وجه آخر، فليس ذلك بمتضاد، نحو أن يموت عدوك الذي هو أيضًا عدو لبعض أعدائك، وساع في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك، وترضاه من حيث إنه عدوك، وكذلك للمعصية وجهان: وجه إلى الله تعالى، من حيث إنها اختياره وإرادته، فترضى بها من هذا الوجه تسليمًا للملك إلى مالك الملك، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتًا عند الله تعالى وبغيضًا عنده، حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت، فهومن هذا الوجه منكر ومذموم، ولا ينكشف هذا إلا بمثال، فلنفرض محبوبًا من الخلق قال بين يدي محبه: إني أريد أن أميز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب لذلك معيارًا صادقًا، وهوأني أقصد إلى فلان فأضربه ضربًا شديدًا يضطره ذلك إلى الشتم لي، حتى إذا شتمني أبغضته واتخذته عدوًا، فكل من أحبه علمت أنه أيضًا عدولي، وكل من أبغضه علمت أنه محبي وصديقي، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل

البغض الذي هوسبب العداوة، فحق على كل من هو صادق في محبته أن يقول: أما تدبيرك في ضرب هذا الشخص وأذاه، فأنا محب له، فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك، وأما شتمه إياك من حيث نسبته إلى هذا الشخص، فإنه عدوان منه وتهجم عليك، فأنا كاره له من حيث نسبته إليه إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم، فكذلك تسليط الله ﷻ دواعي الشهوة والمعاصي على العبد، وبغضه على عصيانه.

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ﷻ، ويعادي من عاداه وأبعده عن حضرته، وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته، فإنه بعيد مطرود، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون بغيضًا إلى جميع المحبين، موافقة لمحبوبهم، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده. وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله، والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم، والمبالغة في مقتهم، مع الرضى بقضاء الله تعالى، من حيث إنه قضاؤه، وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه، وهو أن الخير والشر كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة، ولكن الشر مراد مكروه، والخير مراد مرضي به.

والأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع، والوقوف مع ما تعبد به الخلق، من الجمع بين الرضى بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي.

ومما يتعلق بالمحبة.

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «**لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لماتوا شوقًا إلي، ولتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود: هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين علي؟ يا داود أحوج ما يكون العبد إلي إذا استغنى عني، وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلي**».

وكانت امرأة متعبدة تقول: «**والله لقد سئمت الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقًا إلى الله تعالى، وحبًا للقائه. فقيل لها: فعلى ثقة أنت من عملك؟**

قالت: لا، ولكني لحبي إياه وحسن ظني به، أفتراه يعذبني وأنا أحبه؟».

النية

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في النية وحقيقتها وفضلها؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] والمراد بالإرادة: النية.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله رسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**» [أخرجه البخاري، ومسلم (١٩٠٧)].

وعن أبي موسى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**». أخرجاهما في «الصحيحين».

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقد خلفتهم بالمدينة رجالًا، ما قطعتم واديًا، ولا سلكتم طريقًا، إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض**» [أخرجه مسلم (١٩١١)].

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة**» [أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)].

وعن أبي كبشة الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالًا وعلمًا، فهويعمل به في ماله ينفقه في حقه. ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤته مالًا، وهو يقول: لوكان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل،**

قال رسول الله ﷺ: فهما في الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالًا ولم يؤته علمًا، فهو يخبط فيه، ينفقه في غير حقه. ورجل لم يؤته مالًا ولا علمًا، فيقول: لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل. قال رسول الله ﷺ: فهما في الوزر سواء» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥٧٠)، والترمذي (٢٣٢٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢٢٨) كتاب الزهد، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» برقم (٨٦٤)].

وعن أبي عمران الجوني قال: «**تصعد الملائكة بالأعمال، فينادي الملك: ألق تلك الصحيفة، قال: فتقول الملائكة: ربنا قال خيرًا وحفظناه عليه. فيقول تبارك وتعالى: إنه لم يرد به وجهي. قال: وينادي الملك: اكتب لفلان كذا وكذا، مرتين. فيقول: يارب: إنه لم يعمله، فيقول ﷻ: إنه قد نواه**».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى، وصدق النية فيما عند الله تعالى**».

وكان بعضهم يقول: دلوني على عمل لا أزال به عاملًا لله تعالى، فقيل له: أنو الخير، فإنك لا تزال عاملًا وإن لم تعمل، فالنية تعمل وإن عدم العمل، فإنه من نوى أن يصلي بالليل فنام، كتب له ثواب ما نوى أن يفعله.

وقد جاء في الحديث: «**ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها، فينام عنها إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه صدقة تصدق بها عليه**» [أخرجه أبو داود (١٣١٤)، والنسائي (١٧٨٤)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترهيب والترغيب» برقم (٦٠٠)].

س: ما الفرق بين النية والقصد والإرادة؟

ج: النية، والإراة، والقصد، عبارات متواردة على معنى واحد.

س: إلى كم قسم تنقسم الأعمال، وهل يمكن أن تغير النية منها؟

ج: اعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: **القسم الأول**: المعاصي، فلا تتغير

عن موضعها بالنية، مثل من يبني مسجدًا بمال حرام يقصد بذلك الخير، فإن النية لا تؤثر فيه، فإن قصد الخير بالشر شر آخر، فإن الخيرات إنما تعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرًا، هيهات!.

واعلم: أن من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام، كان كتقرب علماء السوء بتعليم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق، فإن هؤلاء إذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى، يتكالبون على الدنيا، ويتبعون الهوى، ووبال ذلك راجع إلى معلمهم، إذ علم فساد نياتهم ومقاصدهم.

ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص، فإن مقاصد أكثرهم معروفة، وقصدهما اجتلاب الدنيا، وأخذ الأموال كيف اتفق، فتعليمهم إعانة على الفساد، فقد علمت أن الطاعة تنقلب معصية بالقصد.

وأما المعصية، فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلًا بل إذا انضاف إليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها، أما الأصل، فهوأن ينوي عبادة الله تعالى لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثال ذلك القعود في المسجد، فإنه طاعة، ويمكن أن ينوي بها نيات كثيرة: منها أن ينوي بدخوله انتظار الصلاة، ومنها الاعتكاف وكف الجوارح، فإن الاعتكاف كف، ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله تعالى فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النيات، فقس على ذلك سائر الطاعات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.

القسم الثالث: المباحات، فما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات،

تصير بها قربات، وينال بها معالي الدرجات، فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة. ولا ينبغي أن يحتقر العبد الخطرات واللحظات، فكل ذلك يسأل عنه في القيامة، لم فعله؟ وما الذي قصد به؟

مثال ما ينوي به القربة من المباحات أن يتطيب، وينوي بالطيب اتباع السنة، واحترام المسجد، ودفع الروائح الكريهة التي تؤذي مخالطيه.

وقال الشافعي رحمه الله: من طاب ريحه زاد عقله. وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاءه، فيسهل عليه إدراك مهمات دينه. وقال بعض السلف: إني لاستحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء، وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى، لأن كل ما هوسبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين، فمن قصد من الأكل التقوي على العبادة، ومن النكاح تحصين دينه، وتطيب قلبه أهله، والتوصل إلى ولد يعبد الله بعده، أثيب على ذلك كله، ولا تحتقر شيئًا من حركاتك وكلماتك، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وصحح قبل أن تفعل ما تفعله، وانظر في نيتك فيما تتركه أيضًا.

واعلم: أن النية هي انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهرلها أنه مصلحة لها، إما في الحال أو المآل، وربما سمع بعض الجهال ما أو صينا به من تحسين النية، فقال عند أكله: نويت أن آكل لله، أو عند قراءته: نويت أن أقرأ لله، وظن أن ذلك نية، وليس كذلك، إنما النية انبعاث القلب، وتجري مجرى الفتوح من الله تعالى، وليست النية داخلة تحت الاختيار، فقد تتيسر في بعض الأوقات، وقد تتعذر، وإنما تتيسر له في الغالب لمن قلبه يميل إلى الدين دون الدنيا.

والناس في النيات على أقسام:

منهم من يكون عمله للطاعة إجابة لباعث الخوف.

ومنهم من يكون عمله إجابة لباعث الرجاء. وثمة مقام أرفع من هذين، وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية، وهذه لا تتيسر

لراغب في الدنيا، وهي أعز النيات وأعلاها، وقليل من يفهمها، فضلًا عن أن يتعاطاها، وصاحب هذا المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر في جلاله حبًا له. وقد حكي أحمد بن خضرويه أنه رأي رب العزة في منامه، فقال له: كل الناس يطلبون مني، وأبو يزيد يطلبني.

وغرضنا من هذه النيات متفاوتة في الدرجات ومن غلب على قلبه منها، فربما لم يتيسر له العدول إلى غيرها، ومن حضرت له نية في المباح، ولم تحضر في فضيلة، فالمباح أولى، وانتقلت الفضيلة إليه.

مثال ذلك أن تحضره نية في الأكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم تنبعث نيته في الحال إلى الصلاة والصوم، فالأكل والنوم أفضل، بل لَوْ مَلَّ العبادة لكثرة مواظبته عليها، وعلم أنه لوترفه ساعة بمباح عاد نشاطه، فذلك أفضل من التعبد حينئذ. قال علي عليه السلام: روحوا القلوب، واطلبوا له طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان.

وقال بعضهم: روحوا القلوب تعي الذكر.

وهذه دقائق لا تدركها إلا بممارسة العلماء، فإن الحاذق في الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته، ويستبعد ذلك القاصر في الطب، وإنما يبتغي به أن تعود قوته ليحتمل المعالجة، وكذلك الخبير بالقتال، قد يفر من بين يدي قرنه حيلة منه، ليستجره إلى مضيق. فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان، معالجة للقلب، والمبصر الموفق يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء، فلا ينبغي لهم استبعاد ما خفي عليهم، بل يسلمون لأصحاب الأحوال إلى أن ينكشف لهم أسرار ذلك، أو ينالوا ذلك المقام.

الإخلاص

س: اذكر طرفًا من أهمية الإخلاص وفضله؟

ج: اعلم: أنه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان وأنوار القرآن أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة، فالناس كلهم هلكي، إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير تحقيق هباء. قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وليت شعري، كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية؟ أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟! أو كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه؟

فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى، أن النية أولًا، لتحصل له المعرفة، ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة.

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة الإخلاص؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٤]، وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وغير ذلك من الآيات.

ويروى عن الحسن قال: «**كانت شجرة تعبد من دون الله، فجاء إليها رجل فقال: لأقطعن هذه الشجرة، فجاء إليها ليقطعها غضبًا لله، فلقيه الشيطان في صورة إنسان فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله.**

قال: إذا أنت لم تعبدها، فما يضرك من عبدها؟ قال: لأقطعنها. فقال له الشيطان: هل لك فيما هو خير لك من ذلك، لا تقطعها ولك ديناران إذا أصبحت عند وسادتك. قال: فمن لي بذلك؟ قال: أنا لك. فرجع فأصبح فوجد عند وسادته دينارين، ثم أصبح بعد فلم يجد شيئًا، فقام غضبان ليقطعها، فتمثل له الشيطان في صورته، فقال: ما تريد؟ قال: أريد أن أقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله. قال: كذبت، مالك إلى قطعها سبيل. فذهب ليقطعها، فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله، ثم قال له: أتدري من أنا؟ فأخبره أنه الشيطان، وقال: جئت أول مرة غضبًا لله، فلم يكن لي عليك سبيل، فخدعتك بالدينارين فتركتها، فلما فقدتهما جئت غضبًا للدينارين، فسلطت عليك».

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: «يا نفس أخلصي وتخلصي». وقال أبوسليمان: «طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى». وحكي أن رجلًا كان يخرج في زي النساء، فيحضر حيث يحضرون من عرس، أو مأتم، فاتفق أنه حضر يومًا موضعًا فيه مجمع النساء، فسرقت درة، فصاحوا: أغلقوا الباب حتى نفتش، ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه، فدعا الله بالإخلاص وقال: إن نجوت من هذه الفضيحة لا أعود إلى مثل هذا، فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا: أطلقوا الحرة، فقد وجدنا الدرة.

س: وضح حقيقة الإخلاص؟

ج: كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه، سمي إخلاصًا.

والإخلاص يضاد الإشراك، فمن ليس مخلصًا، فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات. فالإخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الإلهية.

والشرك منه جلي، ومنه خفي، وكذلك الإخلاص، وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم بابه، وإنما نتكلم الآن انبعث لقصد التقرب، لكن امتزج بهذا الباعث

باعث آخر، إما من الرياء، أو غيره من حظوظ النفس.

ومثال ذلك: أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يعتق عبدًا ليتخلص من مؤونته وسوء خلقه، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو للتخلص من شر يعرض له، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلم أسبابها، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله أو أهله، أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام، ونحو ذلك، فمتى كان باعثه التقرب إلى الله تعالى، ولكن انضاف إليه خاطر من هذه الخواطر، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حد الإخلاص.

والإنسان قلما ينفك فعل من أفعاله، وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الأمور، فلذلك قيل: من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى، نجا، وذلك لعزة الإخلاص، وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب، لأن الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب التقرب من الله تعالى:

قيل لسهل: أي شيء على النفس؟ قال: «**الإخلاص، إذ ليس لها فيه نصيب**».

واعلم: أن الشوائب المكدرة للإخلاص متفاوتة، بعضها جلي، وبعضها خفي، وقد ذكرنا درجات الرياء في بابه. ومن الرياء ما هو أخفى من دبيب النمل، فليطلب هناك، وحاصلة أن ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الإنسان والبهيمة في حالة من العمل، فهو خارج عن صفو الإخلاص، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه. وقد قيل: ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من جاهل، وأريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، والجاهل ينظر إلى ظاهر العبادة، وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي.

س: ما حكم العمل المشوب وهل لصاحبه ثواب؟

ج: أما العمل الذي لا يريد به إلا الرياء، فهو على صاحبه لا له، وهو سبب للعقاب، كما أن العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب، ولا إشكال في هذين القسمين، وإنما النظر في العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحظوظ النفس.

وقد اختلف الناس في ذلك، هل يقتضي ثوابًا أو عقابًا، أو لا يقتضي شيئًا أصلًا؟ وليس تخلو الأخبار عن تعارض في ذلك.

والذي يتضح لنا فيه - والعلم عند الله تعالى - أن ننظر إلى قدر قوة البواعث، فإن كان الباعث الديني مساويًا للباعث النفساني تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى، ضر وأوجب العقاب، لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء، وإن كان الباعث الديني أقوى من الآخر، فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، قال الله تعالى، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. ويشهد لما ذكرنا إجماع الأمة على أن من خرج حاجًا ومعه تجارة، صح حجه وأثيب عليه، وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس، إلا أنه متى كان الحج هوالمحرك الأصلي، لم ينفك السفر عن ثواب. وكذلك الغازي إذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع، حصل له الثواب، ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت إلى الغنيمة أصلًا، والله تعالى أعلم.

الصدق

س: اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الصدق والصادقين؟

ج: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا**» [أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)].

وقال بشر الحافي: «**من عامل الله بالصدق، استوحش من الناس**».

س: ما هي المعاني التي يستخدم فيها لفظ الصدق؟

ج: لفظ الصدق قد يستعمل في معان: أحدها: الصدق في القول، فحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، ولا يتكلم إلا بالصدق، والصدق باللسان هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها.

وينبغي أن يحترز عن المعاريض، فإنها تجانس الكذب إلا أن تمس الحاجة إليها، وتقتضيها المصلحة في بعض الأحوال، وقد كان النبي ﷺ إذا أراد غزة ورى بغيرها لئلا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيتهيؤوا لقتاله [أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)]. وقال ﷺ: «**ليس بكاذب من أصلح بين اثنين فقال خيرًا، أو نمى خيرًا**» [أخرجه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥)]. وينبغي أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه، كقوله: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض. فإن كان قلبه منصرفًا عن الله مشغولًا بالدنيا فهو كاذب.

الثاني: الصدق في النية والإرادة، وذلك يرجع إلى الإخلاص، فإن مازج عمله شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، وصاحبه يجوز أن يكون كاذبًا كما في حديث الثلاثة: العالم، والقارئ، والمجاهد، لما قال القارئ: قرأت القرآن إلى آخره، إنما كذبه في إرادته ونيته، لا في نفس القراءة، وكذلك صاحباه.

الثالث: الصدق في العزم والوفاء به.

أما الأول: فنحو أن يقول: إن آتاني الله مالًا تصدقت بجميعه، فهذه العزيمة قد تكون صادقة، وقد يكون فيها تردد.

وأما الثاني: فنحو أن يصدق في العزم وتسخو النفس بالوعد، لأنه لا مشقة فيه إلا إذا تحققت: الحقائق، وانجلت العزيمة، وغلبت الشهوة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [الأحزاب: ٢٣]﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

الرابع: الصدق في الأعمال، وهو أن تستوي سريرته وعلانيته، حتى لا تدل

أعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على أمر في باطنه، ويكون الباطن بخلاف ذلك. قال مطرف: «**إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله ﷻ: هذا عبدي حقًا**».

الخامس: الصدق في مقامات الدين، وهو أعلى الدرجات، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضى والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق، فالصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقًا. قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولنضرب للخوف مثلًا فنقول: ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف من الله خوفًا ينطلق عليه الاسم وهو غير بالغ إلى درجة الحقيقة، ألا تراه إذا خاف سلطانًا كيف يصفر ويرتعد خوفًا من وقوع المحذور، ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند فعل المعصية. ولذلك قال عامر بن عبد قيس: «**عجبت للجنة نام طالبها، وعجبت للنار نام هاربها**».

والتحقيق في هذه الأمور عزيز جدًا. فلا غاية لهذا المقامات حتى ينال تمامها، ولكن لكلٍ حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قوي، فإذا قوي سمي صادقًا، وإذا علم الله من عبد صدقًا صغا له، والصادق في جميع هذه المقامات عزيز، وقد يكون للعبد صدق في بعضها دون بعض. ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعًا، وكراهة اطلاع الخلق على ذلك.

المحاسبة والمراقبة

س: اذكر بعض الأحاديث في المحاسبة والمراقبة؟

ج: قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن

سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨]. فاقتضت هذه الآيات وما أشبهها خطر الحساب في الآخرة.

س: اذكر أهمية المحاسبة والمراقبة؟

ج: قد تحقق أرباب البصائر أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة لأنفسهم وصدق المراقبة. فمن حاسب نفسه في الدنيا، خف في القيامة حسابه، وحسن منقلبه. ومن أهمل المحاسبة دامت حسراته. فلما علموا أنهم لا ينجيهم إلا الطاعة وقد أمرهم الله تعالى بالصبر والمرابطة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، فرابطوا أنفسهم أولًا بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، وأصلها المحاسبة، ولكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة.

س: تحدث عن المشارطة وأثرها في المحاسبة؟

ج: اعلم: أن التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلبًا للربح، ويشارطه ويحاسبه، كذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس، ويوظف عليها الوظائف، ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ثم لا يغفل عن مراقبتها، فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال، ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما

شرط عليها، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى. فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا. فحتم على كل ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفسية لا عوض لها. فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه فيقول للنفس، ما لي بضاعة إلا العمر، فإذا فني مني رأس المال وقع اليأس من التجارة، وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وأخر أجلي، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا حتى أعمل فيه صالحًا، فاحسبي يا نفس أنك قد توفيت ثم رددت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم، واعلمي أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة، وأن العبد ينشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة، فيراها مملوءة نورًا من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها، فيحصل له من الفزع والخزي ما لوقسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمهم، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من المباح، ويتحسر على خلوها، وبناله، ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته، وعلى هذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك، ولا تدعيها فارغة، ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك.

قال بعضهم: هب أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ فهذه وصيته في نفسه في أوقاته. ثم يستأنف لها وصية أخرى في أعضائه السبعة، وهي: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وتسليمها إلى النفس، فإنها

رعايا خادمة لها فيه هذه التجارة المخلدة، بها يتم أعمالها، ويعلمها أن أبواب جهنم سبعة على عدد هذه الأعضاء. فتعيين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء، فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

أما العين فيحفظها عن النظر إلى ما لا يحل النظر إليه، أو إلى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مستغني عنه، ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو النظر إلى ما خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار، والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ومطالعة كتب الحكم للاتعاظ والاستفادة. وهكذا ينبغي أن يتقدم إلى كل عضو بالوصية بما يليق به، ولا سيما اللسان والبطن، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم، فيشغله بما خلق له، من الذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله تعالى إلى طريق الله، وإصلاح ذات البين، إلى غير ذلك من الخير. وأما البطن، فيكلفه ترك الشره، واجتناب الشبهات والشهوات، ويقتصر على قدر الضرورة، ويشترط على نفسه إن خالفت شيئًا من ذلك أن يعاقبها بالمنع من شهوات البطن، ليفوتها أكثر مما نالت بشهوتها. وهكذا في جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول، وكذلك ما تخفي طاعات الأعضاء ومعاصيها.

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تتكرر في اليوم والليلة، وفي النوافل التي يقدر عليها، وعلى الاستكثار منها. وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم إلى أن تتعود النفس ذلك، فيستغنى عن المشارطة، ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله تعالى عليه في ذلك حق، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمالنا الدنيا، من ولاية أو تجارة أو نحو ذلك، إذ قل أن يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حق الله فيها. فعليه أن يشرط على نفسه الاستقامة فيها، والانقياد للحق.

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**».

وقال عمر ﷺ: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيؤوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾**» [الحاقة: ١٨].

س: وماذا عن مقام المراقبة وأثره في المحاسبة؟

ج: إذا أوصى الإنسان نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، لم يبق إلا المراقبة لها وملاحظتها. وفي الحديث الصحيح في تفسير الإحسان، لما سئل رسول الله ﷺ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» [أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)]. أراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته في حال العبادة.

قيل: دخل الشبلي على ابن أبي الحسين النوري وهو قاعد ساكن، لا يتحرك من ظاهره شيء، فقال له: «**ممن أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سنور كانت لنا، إذا أردت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة**».

وينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل حركه عليه هوى النفس أوالمحرك له هو الله تعالى خاصة؟ فإن كان الله تعالى، أمضاه، وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص. قال الحسن: «**رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر**». فهذه مراقبة العبد في الطاعة، وهوأن يكون مخلصًا فيها، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والإقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم، فإنه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها، ولا يخلو من بلية لابد من الصبر عليها، وكل ذلك من المراقبة.

وقال وهب ابن منبه في حكمة آل داود: «**حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى اخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات، وإجمام للقوة. وهذه الساعة التي هو مشغولٌ فيها بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن تخلو عن عمل هو أفضل الأعمال، وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله، فيه من العجائب ما لو**

تفكر فيه كان أفضل من كثير من أعمال الجوارح».

س: وماذا عن المحاسبة بعد العمل وأهميتها؟

ج: قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة بعد مضي العمل، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

وقال الحسن: «**المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه. وقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله ما من حيلة إليك، هيهات حيل بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ما أردت إلى هذا، ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا أبدًا إن شاء الله**».

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله ﷻ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله.

واعلم: أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في اول النهار يشارط فيه نفسه، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يطالب فيها نفسه في آخر النهار، ويحاسبها على جميع ما كان منها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم. ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المالس، وفي الربح، وفي الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان، فرأس المال في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وليحاسبها أولًا على الفرائض، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفي منها ما فرط. قيل: كان توبة بن الصمة بالرقة، وكان محاسبًا لنفسه، فحسب يومًا فإذا هوابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم، فصرخ وقال: يا ويلتا! ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب وخمسائة ذنب؟! كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب!! ثم خر مغشيًا عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلًا يقول: يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى! فهكذا ينبغي للعبد

أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة، فإن الإنسان لورمى بكل معصية يفعلها حجرًا في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي وهي مثبتة ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

المقام الرابع: معاقبة النفس على تقصيرها:

اعلم: أن المسلم إذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيرًا، أوفعلت شيئًا من المعاصي فلا ينبغي أن يهملها، فإنه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها، بل ينبغي أن يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب أهله وولده.

وكما روي عن عمر ﷺ: أنه خرج إلى حائط له، ثم رجع وقد صلى الناس العصر. فقال: «**إنما خرجت إلى حائطي، ورجعت وقد صلى الناس العصر، حائطي صدقة على المساكين**». قال الليث: إنما فاتته الجماعة، وروينا عنه: «**أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان، فلما صلاها أعتق رقبتين**».

وحكي أن: «**تميم الداري ﷺ نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع**».

ومر حسان بن سنان بغرفة فقال: «**متى بنيت هذه؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك! لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها**».

فأما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل، فيحرم عليه فعله،مثال ذلك: ما حكي أن رجلًا من بني إسرائيل، وضع يده على فخذ امرأة، فوضعها في النار حتى شلت، وأن آخر حول رجله لينزل إلى امرأة، ففكر وقال: ماذا أردت أن أصنع؟ فلما أراد أن يعيد رجله قال: هيهات رجل خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي.

فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر خرجت إلى معصية الله لا ترجع معي. فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح، وأن آخر نظر إلى امرأة فقلع عينيه، فهذا كله محرم، وإنما كان جائزًا في شريعتهم. وقد سلك نحو ذلك خلق من أهل ملتنا، حملهم على ذلك الجهل بالعلم، كما حكي عن غزوان الزاهد: أنه نظر إلى امرأة،

فلطم عينه حتى نفرت. وروينا عن بعضهم: أنه أصابته جنابة وكان البرد شديدًا، وأنه وجد في نفسه توقفا عن الغسل، فآلى ألا يغتسل إلا في مرقعته، ألا ينزعها ولا يعصرها، فكانت شديدة الكثافة تزيد على عشرين رطلًا. وهذا من الجهل بالعلم، فإنه ليس للإنسان أن يتصرف في نفسه بمثل هذا.

س: تحدث عن مقام المجاهدة وأهميته في المحاسبة؟

ج: إذا حاسب العبد نفسه، فينبغي إذا رآها قد قارفت معصية أن يعاقبها كما سبق، فإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل، أو ورد من الأوراد، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها، كما ورد عن ابن عمر ﷺ أنه فاتته صلاة في جماعة، فأحيا الليل كله تلك الليلة، وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع. وقال ابن المبارك: «**إن الصالحين كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوًا، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا كرهًا**».

ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين، وما ورد في فضلهم، ويصحب من يقدر عليه منهم، فيقتدي بأفعاله. قال بعضهم: «**كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده؟ فعملت على ذلك أسبوعًا**». «**وقد كان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم ألف ركعة**». «**وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفر**»، «**وحج مسروق فما نام إلا ساجدًا**». «**وكان داود الطائي يشرب الفتيت مكان الخبز، ويقرأ بينهما خمسين آية**». «**وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات**»، «**وكان عمر بن عبد العزيز، وفتح الموصلي يبكيان الدم**»، وصلى أربعون نفسًا من القدماء الفجر بوضوء العتمة، وجاور أبو محمد الحريري سنة فلم ينم ولم يتكلم، ولم يستند إلى حائط، ولم يمد رجله، فقال له أبو بكر الكتاني: بم قدرت على هذا؟ قال: «**علم صدق باطني فأعانني على ظاهري**». ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت: «**إنما هي أيام مبادرة، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غدًا والله يا إخوتاه! لأصلين لله ما أقلتني جوارحي، ولأصومن له في أيام**

حياتي، ولأبكين ما حملت الماء عيناي».

س: اذكر بعض الآثار في مقام معاتبة النفس وتوبيخها؟

ج: قال أبو بكر الصديق ﷺ: «**من مقت نفسه في ذات الله آمنه الله من مقته**». وقال أنس ﷺ: «**سمعت عمر بن الخطاب ﷺ ودخل حائطًا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بخ بخ، والله لتتقين الله يا ابن الخطاب أو ليعذبنك**». وقال البختري بن حارثة: «**دخلت على عابد فإذا بين يديه نار قد أججها وهو يعاتب نفسه، فلم يزل يعاتبها حتى مات**». وكان بعضهم يقول إذا ذكر الصالحون: فأوف لي وتف.

واعلم: أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمتها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها.

وسبيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أوالنار؟ فكيف يلهو من لا يدري إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أوفي غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت.

فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد رقاعتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جربي ذلك بالقعود ساعة في الحمام، أوقربي أصبعك من النار، يا نفس! إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات، فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة

منعت أكلات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر؟! فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام لتنعم طول العمر؟ أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبدًا؟ فجميع عمرك بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا.

وليت شعري! ألم الصبر عن الشهوات أشد طول، أم النار في الدركات؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة؟ أشغلك حب الجاه؟ أما بعد ستين سنة أونحوها، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه. هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفًا من سرعة فنائها؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقى؟ قد ضاع أكثر البضاعة، وقد بقيت من العمر صبابة، ولو استدركت ندمت على ما ضاع، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول؟ اعملي في أيام قصار لأيام طوال، وأعدي الجواب للسؤال. اخرجي من الدنيا خروج الأحرار قبل أن يكون خروج اضطرار. إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسير. تفكري في هذه الموعظة، فإن عدمت تأثيرها، فابكي على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة.

التفكر

س: اذكر أهمية التفكر وبعض الآيات والأحاديث الواردة في ذلك؟

ج: قد أمر الله سبحانه بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]. وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا في آلاء الله ولاتفكروا في ذات الله**» [أخرجه أبوالشيخ في «العظمة» (١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٠)، من حديث ابن عمر

ﷺ. والحديث حسنه الشيخ [illegible] في «السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨)]. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «**تفكر ساعة خير من قيام ليلة**». وقال وهب بن منبه: «**ما طالت فكرة امريء قط إلا فهم، وما فهم إلا علم، وما علم إلا عمل**». وقال بشر الحافي: «**لوتفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه**». وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٧]، قال: «**أمنع قلوبهم من التفكر في أمري**». وكان داود الطائي على سطح في ليلة قمراء، فتفكر في ملكوت السماوات والأرض، فوقع في دار جار له، فوثب عرياناً وبيده السيف، فلما رآه قال: يا داود، ما الذي ألقاك؟ قال: «**ما شعرت بذلك**».

وقال يوسف بن أسباط: «**إن الدنيا لم تخلق لينظر إليها، بل لنظر بها إلى الآخرة**». «**وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم**». وقال أبوبكر الكتاني: «**روعة عند انتباهة من غفلة، وانقطاع عن حظ نفساني، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عبادة الثقلين**».

س: في ماذا يكون الفكر؟

ج: الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين، وقد يجري في أمر يتعلق بغيره، وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، وشرح ذلك يطول. فلينظر الإنسان في أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات. فلا تغفل عن نفسك، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله، والمقربة إليه. وينبغي لكل طالب أن تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم.

ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة، فإنه إن سلم منها سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه. ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء والشكر على النعماء، واعتدال الخوف

والرجاء، والزهد في الدنيا والإخلاص في الأعمال، وحسن الخلق مع الخلق، وحب الله تعالى، والخشوع. فهذه عشرون خصلة: عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كفي من المذمومات واحدة خط عليها في جريدته، وترك الفكر فيها، وشكر الله تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثم يقبل على التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع.

وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها، كالتوبة والندم مثلًا، خط عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المسلم المشمر.

فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين، فينبغي أن يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة، كأكل الشبهات، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة، والمراء، والثناء على النفس، والإفراط في موالاة الأولياء ومعاداة الأعداء، والمداهنة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم تطهر الجوارح من الآثام، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره. وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور، فينبغي أن يكون تفقدهم لها وتفكيرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمر من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتشار الصيت، إما بالتدريس، أو بالوعظ.

ومن فعل ذلك، فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون. وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كما يتغاير النساء، وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها. ومن أحس من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى، فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه.

وعند هذا ينبغي أن يتقي شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لاندراس العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغن عني، ولومت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي، فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه،

نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

س: ما حكم التفكر في ذات الله ﷻ؟

ج: قد تقدم أن النبي ﷺ قال: «**تفكروا في آلاء ولا تفكروا في ذات الله**» [أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٢٠)، من حديث ابن عمر ﷺ. والحديث حسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٨٨)] فالتفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تتحير في ذلك، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكر، أوتتوهمه القلوب بالتصوير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فأما التفكر في مخلوقات الله تعالى، فقد ورد القرآن بالحث على ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ . . . الآيات [آل عمران: ١٩٠]. وقوله ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. ومن آيات الله تعالى الإنسان المخلوق من نطفة، فيتفكر الإنسان في نفسه، فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى، ما تنقضي الأعمار في الوقف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك.

وقد أمره الله تعالى بالتدبر في نفسه، فقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. ومن آياته الجواهر المودعة في الجبال، والمعادن من الذهب والفضة والفيروز ونحوها، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها.

ومن آياته البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض. ولو جمع المكشوف من الأرض، من البراري، والجبال، لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وفي البحر عجائب أضعاف ما نشاهده في البر: وانظر كيف خلق اللؤلؤ، ودوره في صدفة تحت الماء، وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء؟ وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر، وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيرها في البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء، فإنه حياة كل ما على

الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء، ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم إذا شربها ومنع خروجها، لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها، فلا يغفل العبد عن هذه النعمة. ومن آياته وهو جسم لطيف لا يرى بالعين، ثم انظر إلى شدته وقوته، وانظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق، وغير ذلك من العجائب.

وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء، ثم انظر إلى السماء وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلا ولله فيه حكمة في لونه وشكله، وانظر إلى إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وانظر مسير الشمس، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف. وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفًا وستين مرة، وإن أصغر كوكب في السماء مثل الأرض ثمان مرات، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد، فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السماء التي فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها، والعجب منك أنك تدخل بيت غني مزخرف مموه بالذهب، فلا ينقطع تعجبك منه، ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تلتفت نحوه بقلبك، ولا تتفكر في بناء خالقك، فلقد نسيت نفسك وربك، واشتغلت ببطنك وفرجك، فما مثلك في غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذي حفرته في حائط قصر الملك، فتلقى أختها فتتحدث معها في حديث بيتها، وكيف بنته وما جمعت فيه، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه. فهكذا أنت في غفلتك، فما تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك. فهذا بيان معاقد الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين، والأعمار تقصر، والعلوم تقل عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلما استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم. فتفكر فيما أشرنا إليه ها هنا مع ما قدمناه من الإشارة في كتاب الشكر. فمن نظر في

هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته، ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب، شقي. نعوذ بالله من مزلة أقدام الجهال، ومن الركون إلى أسباب الضلال.

الموت

س: وضح أهمية ذكر العبد للموت وآثره على الحياة؟

ج: اعلم: أن المنهمك في الدنيا المكب في غرورها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإن ذكره كرهه ونفر منه، ثم الناس إما منهمك، أو تائب مبتديء، أو عارف منتبه. فأما المنهمك فلا يذكره، وإن ذكره فيذكره لتأسف على دنياه، ويشتغل بذمه، وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى إلا بعدًا.

وأما التائب، فإنه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة، وربما يكره الموت خيفة أن يختطفه قبل تمامها أوقبل إصلاح الزاد، وهومعذور في كراهة الموت. ولا يدخل بهذا تحت قوله ﷺ: «**من كره لقاء الله كره الله لقاءه**» [أخرجه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (١٥٧)، من حديث عائشة ﵂]. فإنه إنما يخاف لقاء الله لقصوره وتقصيره، فهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلًا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهًا للقائه، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له، لا شغل له سواه، وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا. وأما العارف، فإنه يذكر الموت دائمًا، لأنه موعد لقاء الحبيب، وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه. وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت. ويحبه ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما قال بعضهم: حبيب جاء على فاقه. فإذن التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه، وأعلى منهما من فوض أمره إلى الله